

اخبار العلماء باخبار الحكماء

من الكتب الجيدة في التراجم هذا الكتاب للوزير جمال الدين ابي الحسن علي القفطي من اهل القرن السابع طبع اولاً في ليبسيك واعيد طبعه في القاهرة فتداولته الابدي وعم الانتفاع منه كما عم من قبل بكتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء^(١) لموفق الدين ابي العباس احمد المعروف بابن ابي أصيعة من اصل ذلك القرن الا ان كتاب اخبار الحكماء مال فيه صاحبه الى الاختصار حتى جاء في نحو نصف طبقات الاطباء وان كان زاد عليه بضع تراجم لان المترجمين سيفي كلا السفرين التفسيرين تجاوزوا الاربعمائة

سرد ابن القفطي اسما مترجمه على حروف المعجم بحسب تقادم عهدهم بخلاف ابن ابي أصيعة الذي اتي بالتراجم بحسب الاقطار ثم بحسب سني ولاداتهم ولم يشع الاول الكلام الا في بعض الأشخاص وربما اوجز في الاحايين يمحاذراً لا يكاد يقع فيه ابن ابي أصيعة الا نادراً والغالب ان هذا وقف في جملة ما وقف عليه من الكتب كتاب القفطي فاستعان به وزاد عليه لان هذا توفي سنة ٦٤٦ في حلب وابن ابي أصيعة توفي سنة ٦٦٨ في صرخد من بلاد الشام ولا يعقل ان يكون رجلاً من متعاصرين ولا يطلع احدهما على ما يكتبه الآخر فقد نرى بعض التراجم بالحرف الواحد في الكتابين ولعل المصادر التي اخذ عنها المؤلفان كانت واحدة فجاءت بعض تراجم مترجمهم بعبارة واحدة

ومع ان ابن النفطي اشتهر بانه من كبار غلاة الكتب^(٢) وهو ذو ثروة واسعة وفي منصب الوزارة نرى ابن ابي أصيعة وهو من طبقة الاطباء في عصره يهدي كتابه الى احد وزراء دمشق ومع هذا نقرأ فيه سعة المادة المدخلة ولكن المتأخر قد يفوق المتقدم ولا عبرة بتقادم الميلاد كما لا عبرة باختلاف البلاد اذا كان الترفي فيها علماً وهذا لا بأس بايراد طرف من ترجمة صاحب اخبار الحكماء زيادة في البيان فهو علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الواحد بن موسى وزير حلب الفاضل الاكرم^(٣) الوزير جمال الدين ابراهيم بن الحسن بن القفطي احد الكتاب المشهورين وكان ابيه القاضي الاشراف كاتباً ايضاً ولد بقطف من الصعيد الا على بالديار المصرية وانما لمجلب وكان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والاصول والمنطق والنحو والهندسة

والتاريخ والجرح والتعديل ولد سنة ستين وخمسمائة وتوفي سنة ست واربعين وستائة
وكان صدراً محشماً كامل السؤدد وجمع من الكتب، الا بوضف وقصد بها من الآفاق
وكان لا يحب من الدنيا سواها ولم يكن له دار ولا زوجة واوصى بكتبه للناصر صاحب
حلب وكانت تساوي خمسين الف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب وهو
اخو المؤيد ابن القفطي ومن شعره

ضدان عندى قصر امني وجه لحي ولسان وقاح
ان رمت امرأ خاتني ذو الحيا ومقول يطمعي في النجاح
فانشي من حيرة منها لي مخب ماض ومالي جناح
شبه جيات فر من معرك خوفاً وفي يناه غضب الكفاح

وله من التصانيف كتاب الضاد والظاء وهو ما اشتربه في اللفظ واختلف في المعنى
واخط . كتاب الدر الثمين في اخبار المثمين . كتاب من الوت الايام عليه فرفعته ثم الوت
عليه فوضعت . كتاب اخبار المصنفين وما صنفوه . كتاب اخبار النحويين كبير كتاب اخبار
مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين ست مجلدات كتاب اخبار المغرب كتاب تاريخ
اليمن كتاب المحلى في استيعاب وجوه كلا . كتاب اصلاح خلصاح الجوهرى كتاب
الكلام على الموطن لم يتم كتاب الكلام على صحيح البخاري لم يتم تاريخ محمود بن
سبكتكين وبقية كتاب تاريخ السلجوقية كتاب الاستثناس في اخبار آل مرداس
كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم كتاب مشيخة تاج الدين الكندي كتاب نهضة
الخطار ونزهة الناظر في احاسن من ظهور الكتب اه .

وعلى ماتوخى ابن القفطي من الاختصار في التراجم تسقط فيه على امور كثيرة وفوائد
غزيرة خصوصاً وان من الرجال من ترجمهم هو وحده ومنهم من تفرد بهم ابن ابى أصيبعة
ومنهم وهم الاكثر من اشتهر كما معاً في ترجمتهما مثل الذي نقله عن الخطيب امين الدولة
ابوالحسن علي الاباني العثماني الاموي القفطي صاحب القاضى الاكرم قال : « وكان من اجمل
من رأيت نباهة وفضلاً وبلاغة ومشاركة قال ادركت جلة المشايخ من اجلاء بلادنا
وهم مجمعون على ان الذي اردم اراثي اكثر قرى مصر واسس الجسورة المتوصل بها
من قرية الى قرية في زمن النيل هو ارثيميدس فعل ذلك لبعض ملوكها وسببه ان اكثر
القرى بمصر كان اهلها اذا جاء النيل تركوها وصعدوا الى الجبال المقابلة لها فاقاموا بها

الى ان يذهب النيل خروفاً من الغرق واذا اخذ النيل في النقص نزل كل قوم الى اراضيهم وشرعوا في الزرع فكان ما تامل من الارض بينهم ما انحبس فيه من الماء عن الوصول الى ما علا فلا يوصل اليه الا بعد جفافه فلا يمكن زراعته فيذهب بذلك فعل كثير ولما علم ارشيدس بذلك في زمته قاس اراضي اكثر القرى على ما يكون من النيل واردم ردماً وبني عليها القرى وعمل الجسور مما بين القرى وفي اوساط الجسور قناطر ينفذ الماء منها من ارض قرية الى اخرى فزرع كل واحد منهم الزرع في وقته من غير قنات ووقف من كل ضيعة ارضاً معينة يصرف مغلها في كل سنة الى اصلاح هذه الجسور فهي الى الان معلومة ولها ديوان منرد بمصر يعرف بديوان مدن الجسور وعليها احتراز كثير وعناية كثيرة واعرف وانا طفل وقد اضيفت هذه الجهة بالاعمال الشرقية من جوف مصر الى والذي رحمه الله نظراً وله نواب وضمان ومشدون وكان العمل فيها اتعب من جميع الاعمال اهـ

ومثل قوله في ترجمة جالينوس الحكيم بان انطونيوس قيصر ملك اثنتي عشرة سنة وبني مدينة ايليوبوليس وهي مدينة بعلبك اي اصلحها وقد قال في ترجمة سنان بن ثابت بن قرة الحارثي مانعه : « وكانت منزلة سنان كبيرة عند الامراء والوزراء فمن ذلك ان الوزير علي بن عيسى بن الجراح وقع اليه في سنة كثرت فيها الامراض والالواء توقيعاً نسخته : فكرت مد الله في عمرك في امر من في الحبوس وانهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء اماكنهم ان تنالهم الامراض وهم معوقون من التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء في امراضهم فينبغي اكرمك الله ان تغرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحملون معهم الادوية والاشربة وما يحتاجون اليه من المزورات وتتقدم اليهم بان يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا عنهم فيما يصقونه لم ان شاء الله تعالى . ففعل سنان ذلك ثم وقع اليه توقيعاً آخر : فكرت فيمن بالسواد من اهله وانه لا يخلو من ان يكون فيه مرضي لا يشرف متطبب عليهم فخلو السواد من الاطباء فتقدم مد الله في عمرك بانقاذ متطببين وخزانة من الادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقبضون في كل صقع منه مدة مائة مائة الحاجة الى مقامهم ويعالجون فيه ثم يتقلون الى غيره . ففعل سنان ذلك وانتهى اصحابه الى سورا والغالب على اهله اليهود فكتب سنان الى الوزير علي بن عيسى يعرفه ورود كتب اصحابه عليه من السواد بان اكثر من بسورا ونهر ملك يهود وانهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم

او الانصراف عنهم الى غيرهم وانه لا يعلم بما يجيبهم به اذ كان لا يعرف رأيه في اهل الذمة
ومثله ان الرسم في بهارستان الحضرة قد جرس للي والدمي . فوقع الوزير توقيعاً
نسخته : فهمت ما كتبت به اكرمك الله وليس يتناخلف في ان معالجة اهل الذمة والبهائم
صواب ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم والمسلمين قبل
اهل الذمة فاذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون اليه صرف في الطبقة التي بعدهم فاعمل
اكرمك الله كآي ذلك واكتب الى اصحابك به ووصي بالتمت في القرى والمواقع التي
فيها الاوباء الكثيرة والامراض الفاشية وان لم يبدوا بذرة توقفا عن السير حتى يصح
لم الطريق ويصلح السبل فانهم اذا فعلوا هذا وفقوا ان شاء الله تعالى اهـ

وفي هذه الرسائل الثلاث نموذج مهم من الكتابة الرسمية في اوائل مدة العباسيين
ودليل على ما بلغته الحضرة في عهدهم ايام كان الطب من جملة ما يبيع به حتى ان سنان
ابن ثابت احصى الاطباء في بغداد ولم يرخص لاحد من ان يطيب الا اذا اخذ شهادة بكفائه . ته
وكذلك فعلوا مع الصيادلة حتى لا تؤثّر في الامة من جهة طب ابدانها كما حاذر الخلفاء ان
لا تؤثّر في من قبل ادبائها .

وكما تجدد الحاسن ماثلة في اخبار الحكماء ترى المساوي كذلك كالذنب ذكره في
ترجمة عبد السلام بن عبد القادر الجيلي المعروف بالركن قال : « كان عبد السلام هذا
قد قرأ علوم الاوائل واجادها واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن
شهرة تامة وله تقدم في الدولة الامامية الناصرية وحصل له بتقدمه حـ د من ارباب
الشر فثابه احدهم بانه معطل وانه يرجع الى اقوال اهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن
فاوقعت الحفظة عليه وكآي كتبه فوجد فيها الكثير من علوم القوم وبرزت الاوامر
الناصرية باخراجها الى موضع يشهد يعرف بالرجبة وان تحرق بمحضور الجمع الجم منها
ففعل ذلك واحضر لها عبيد الله التيمي البكري المروفي بآبن المرستانية وجعل له منبر
صعد عليه وخطب خطبة له فيها الفلاسفة ومن يقول بقرن وذكر الركن عبد السلام
هـ هذا بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم
مصنفيه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار اهـ

ومثلاً نقله من الفقرة في ترجمة موسى بن ميمون الاسرائيلي الاندلسي لما نادى عبد
المؤمن بن علي الكومي البربري المستولي على المغرب في البلاد التي ملكها باخراج النصارى
منها وقدر لهم مدة وشرط ان اسلم منهم بموضع على اسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ما

عليهم ومن بقي على رأي اهل ملته فاما ان يخرج قبل الاجل الذي اجله واما ان يكون بعد الاجل في حكم السلطان مستهلك النفس والمال

ومما ذكره وهو ما يدل على اتساع ثروة العرب ^(١) في ترجمة بني موسى بن شاكر محمد واحمد والحسن من ان محمداً صار بالعلم من وجوه القواد الى ان غلب الاتراك على الدولة وذهبت دولة اهل سراسان وانتقلت الى العراق فعملت منزله واتسع حاله الى ان كان مدخوله في كل سنة بالخضرة وفارس ودمشق ونحوها نحو اربعمائة الف دينار ومدخول احمد ابيه نحو سبعمائة الف دينار . فتأمل مبلغ هذه الثروة

ومما اقتبس من هذا الكتاب انموذجاً على درجة الحضارة في القرن الخامس ما نقله من كتاب كتبه المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم الطيب البغدادي المعروف بابن بطلان من نصارى كرخ بغداد الى الرئيس هلال بن الحسن بن ابراهيم ونسبه : « بسم الله الرحمن الرحيم . انالما اعتقده من خدمة سيدنا السيد الاجل اطال الله بقاءه وكبت اعداءه دانياً وقاصياً واقترضه من طاعته مقيماً وظاعناً اضمزت عند وداعي حضرة العالية وقد ودعت منها الفضل والسؤود والجد والفخر والمجد ان اتقرب اليها واجدد ذكرى عندها بالمطالعة مما استطرفه من اخبار البلاد التي اطرقها واستغربه من غرائب الاسقاع التي املكها خدمة للكتاب الذي هو تاريخ المحاسن والمفاخر وديوان المعاني والمآثر ليودع ادام الله تمكينه منها ما يراه ويلحق ما يستوفيه ويرضاه وعلى ذكره فمأربت احداً بمصر وهذه الاعمال اكثر من الراغب فيه وكل رئيس في هذه الديار متوق اليه متشوق ولو صوله مترتب متوقع ولو وصلت منه نسخة بلوغ الجالب لها أمنية في رجبها ونفعها والى الله تعالى ارفع في نشر فضيلته الباهرة ومحاسنه الزاهرة بجوده . وكنت خرجت من بغداد وبدأت بلقاء مشايخ البلاد وخواصها واستلأ ما عندهم من آثارها وعجائبها فذكر لي اخبار مستطرفة وعجائب غريبة واقطاع من الشعر رائقة ولضيقت الوقت وسرعة الرسول اضربت عن اكثره واقتصررت على اقله وكنت خرجت على اسم الله تعالى وبركته مشتهل شهر رمضان سنة اربعين واربعائة مسجداً في نهر عيسى على الانبار ووصلت الى الرحبة بعد تسع عشرة رحلة وهي مدينة طيبة وفيها من انواع الفواكه ما لا يحصى وبها تسعة عشر نوعاً من الاغتاب وهي متوسطة بين الانبار وحلب وتكريت والموصل وسنجار والجزيرة وبينها وبين قصر الرصافة مسيرة اربعة ايام ورحلتنا

من الرصافة الى حلب في اربع رحلات وهي بلد مسور بالحجر الابيض فيه ستة ابواب
وفي جانب السور قلعة في اعلاها مسجد وكنيستان وفي احدهما مكان المذبح الذي كان
يقرب عليه ابراهيم عليه السلام وفي اسفل القلعة مغارة كان يجأ فيها غنمه واذا حليها
اضاف بلينها الناس فكانوا يقولون حلب ام لا ويسأل بعضهم بعضاً عن ذلك فسميت
حلب وفي البلد جامع وست بيع وبيارستان صغير والفقهاء يفتون على مذهب الامامية
وشرب اهل البلد من صهاريج وعلى بابها نهر يعرف بقوبق يمد في الشتاء وينضب في الصيف
وفي وسط البلد علوة صاحبة البحري وهو قليل الفاكهة والبقول والنبذ الا ما يأتيه من
الروم (الاناضول) وما يجلب موضع خراب ومنه خرجنا من حلب طابئين انطاكية
وبين حلب وبينها يوم وليلة فبقنا في بلدة للروم تعرف بع فيها عين جارية يصاد منها
السماك ويدور عليها رحا وفيها من الخناوير والنساء العواصر والزنا والخمر امر عظيم
وفيها اربع كنائس وجامع يؤذن فيه سرّاً والمسافة التي بين حلب وانطاكية ارض مافيا
خراب اصلاً الا ارض زرع للحنطة والشعير يجنب شجر الزيتون وقراها متصلة ورياضها
مزهرة ومياها متفجرة وانطاكية بلد عظيم ذو سور وقيل وسوره ثلثائة وستون
برجاً يطوف عليها بنوبة اربعة آلاف حارس يتقذون من القسطنطينية من حضرة الملك
فيضمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في الثانية وشكل البلد كنصف دائرة قطرها
يتصل بجبل والسور يصعد من الجبل الى قلته ويستقيم دائرة وسف رأس الجبل داخل
السور قلعة تبين بعدها من البلد صغيرة وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها
الا في الساعة الثانية وللور المحيط بهادون الجبل خمسة ابواب وفي وسطها قاعة القسياني
وكانت دار قسيان الملك الذي احيى ولده بطرس رئيس الحوار بين وهو هيكل طوله مائة
خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وداير الهيكل اروقة يجلس فيها القضاة
للحكومة ومعلمو النحو واللغة وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فجان الساعات بعمل ليلاً
ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا وفي اعلاه خمس طبقات
سيف الخامة منها حمامات وبساتين ومقاصير حسنة وشجر منها المياه وهناك من
الكنائس ما لا يحصى كثرة كلها معمولة بالقص المذهب والزجاج الملون والبلاط المزجج وفي
البلد بيارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد
مثله في مدينة من اللذابة والطيبة فان قودها من الآس وماؤها سيج وفي ظاهرها

نهر يعرف بالمقلوب يأخذ من الجنوب الى الشمال وهو مثل نهر عيسى وخارج البلد دير سمعان وهو مثل نصف دار الخليفة يضاف فيها المجتازون يقال ان دخله في السنة اربعمائة الف دينار ومنه يصعد الى جبل اللكام وفي هذا الجبل من الديارات والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والانهار الجارية والزهاد والسياح وضرب الفواقيس في الاسحار والحن الصلوات ما يتصور معه الانسان انه في الجنة . وفي انطاكية شيخ يعرف بابي نصر بن العطار قاضي النضاة فيها له يد في العلوم مليح الحديث والافهام وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانية ولها ميناء وملعب وميدان للخيول مدور وبها بيت كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في اول الاسلام مسجداً وهي رابطة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه واذان في اوقات الصلوات الخمس وعادة الروم اذا سمعوا الاذان ان يضربوا الناقوس وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم . ومن عجائب هذا البلد ان المحتسب يجمع القحط والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهم ويزيد الفسقة فيهن ليلتها تلك ويؤخذن الى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء بعد ان تأخذ كل واحدة منهم خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها فانه متى وجد خاطباً مع خاطبة بغير ختم المطران الزمه جنابة . وفي البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر احوالهم والالفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم واذهانهم اه . »

وبعد فان تاريخ التفطحي من الكتب التي اجاد فيها مصنفها حري بان يستفيد منه كل متأدب ومتعلم ويرجع اليه كل عالم ومؤرخ سلس العبارة جميل المأثي ينقل الامور على علاقتها في الاكثر بدون تقيص لها او ابداء رأي فيها وابن ابني اصبعة يفوقه في رد كل قول الى قائله وضبط الاعلام والتدقيق في التواريخ واخبار الرجال وذكر شذور من شعرهم ونثرهم والكتابات كفرنسي رمان او كالسلسلة المفرغة لاندري ابن طر فاها

